أدب الطفيليين

التأصيل والخصائص العامة

أ.م.د. مزاحم مطر حسين
جامعة القادسية/كلية التربية

بسم الله الرحمن الرحيم

التطفيل سلوك يقوم على انتهاك الخصوصيات في المناسبات الاجتماعية القائمة على اصطناع المأكولات٠

والطفيلي هو الشخص الذي يتعرض لطعام الآخرين من غير أن يدعى إليه(١)٠

وقد استأثرت هذه الظاهرة باهتمام العلماء القدامى فدعتهم إلى إفراد المؤلفات الخاصة بها،فضلاً عن تخصيص بعض الأبواب المستقلة في كتب الأدب؛فممن أفرد هذا الموضوع بالتأليف أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ)ولعله كان سبّاقاً في التصدي لرصد هذه الظاهرة بتخصيصه كتاباً كاملاً فيها كما يوحي بذلك عنوان مؤلفه (كتاب الطفيليين)(٢)٠

ثم قام بعد ذلك أبو الفرج الأصفهاني(٣٥٦ه) بتأليف (كتاب أخبار الطفيليين)(٣)٠

ووضع الخطيب البغدادي(٤٦٣ه) كتاب (التطفيل وحكايات الطفيليين و أخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم)(٤)٠

وممن خصص باباً للحديث عن الطفيليين ابن عبد ربه الأندلسي (٣٢٨ه) في كتابه (العقد الفريد)وقد عنونه ب(أخبار الطفيليين)(٥)،ومنصور بن الحسين الآبي(٤٢١ه)في كتابه (نثر الدر)بعنوان(نوادر الطفيليين والأكلة)(٦) والحصري القيرواني(٤٥٣ه)في كتابه (زهر الآداب)تحت عنوان (ألفاظ لِأهل العصر في صفة الطفيليين والأكلة وغيرهم)(٧)،وابن حمدون(٤٥٩ه) في موسوعته (التذكرة الحمدونية) بعنوان (في التطفيل وإخبار الطفيليين)(٨)،وابن الجوزي (٥٠٨ه) في كتاب (الأذكياء)بعنوان (في ذكر طرف من فطن المتطفلين)(٩)،و النويري (٧٣٣ه) في موسوعته الأدبية (نهاية الأرب في فنون الأدب) بعنوان (ذكر ما قيل في التطفيل)(١٠)، وابن طولون (٨٨٠ه) في كتابه (فص الخواتم فيما قيل في الولائم) بعنوان (التطفل والطفيليون)(١١)٠

ولاشك عندي أن اهتمام الباحثين القدامى بهذه الظاهرة على هذا النحو متأت من إحساسهم بأهمية دراستها ؛لِأنها بدأت تثير كثيراً من الأسئلة التي تحتاج إلى اجابة٠ ونحن بدورنا نحاول أن نجد الإجابة عند القدماء عن بعض الأسئلة التي تناسب ما يفكر به الباحث المعاصر والتي تلح على عقولنا ونحن نناقش ظاهرة اجتماعية قد أسهمت على نحو ملحوظ في نشوء مادة أدبية شغلت مساحة واسعة من كتب الأدب وضعت تحت عنوانات شتى ولكنها تدور على محور واحد هو (التطفيل).

مرت هذه الظاهرة فيما يبدو بسلسلة من التطورات و التحولات التاريخية على مستوى الاستعمال اللغوي و الاجتماعي ، والذي يطمئن إليه أن هذه الظاهرة كانت موجودة منذ أزمان بعيدة لِارتباطها بالعوز و الفقر اللذين لا يمكن أن تخلو منهما حياة الناس في العصور المختلفة؛ غير أنها كانت تُعرف بأسماء متعددة ليس بينها لفظ (التطفيل) ، لِإن هذا الاصطلاح فيما يبدو متأخر نسبيا في دلالته على هذه الظاهرة ، وهذا ما أشار إليه الجاحظ في وقت مبكر عندما ذهب إلى أن (قول الناس: فلان طفيلي ،

ليس من أصول كلام العرب،ليس كالراشن واللموظ،وأهل مكة يُسمونه البُرَقيّ)(١٢) وأكده السيوطي (٩١١ه) فيما بعد بقوله : (الطفيلي مُحدثة لا توجد في العتيق من كلام العرب)(١٣)٠

ولا ندري بالضبط متى تحول وصف الشخص الذي يدخل الولائم دون أن يُدعى إليها من هذه الاستعمالات المختلفة (كالراشن واللموظ والبُرقيّ وغيرها)إلى (الطفيلي) الذي أصبح على ما يبدو أكثرها استعمالاً وأوسعها انتشارا وهذا ما تؤيده تلك الكتب الأدبية التي سبقت الإشارة إليها فهي قد عنونت الأبواب (بالتطفيل) و(الطفيلي) دون سائر الاستعمالات الاخرى٠

غير أن ثمة بعض الإشارات التاريخية التي قد تنفعنا بعض الشيء في الاهتداء إلى الزمن التقريبي الذي بدأت فيه هذه اللفظة تأخذ بدايتها في الاستعمال، إذ تذكر كتب التراث أن لفظ (الطفيلي) المحدث هذا جاء أصلاً من النسبة إلى شخص يقال له(طفيل بن زلال) لُقب ب(طفيل الأعراس)و (طفيل العرائس)،وهو رجل من أهل الكوفة، من بني عبد الله بن غطفان(١٤)،وأنه كان من موالي الخليفة عثمان بن عفان (٣٥ه) ؛فإذا نظرنا إلى هذه المعلومة بعين الاعتبار ؛ يكون طفيلي الأعراس هذا من أبناء النصف الأول من القرن الأول للهجرة (النصف الثاني من القرن السابع للميلاد)٠

وبما إن هذه المصادر التي أوردت ذكر طفيلي الأعراس أو العرائس تجمع على انه رأس الطفيليين وإليه نُسب الطفيليون فيما بعد؛فيكون على هذا تحول وصف هذا السلوك من تلك الاستعمالات المختلفة إلى الطفيلي في حدود هذا الزمن الذي ذكرناه٠

والتطور الاجتماعي المنطقي الذي خضع له هذا السلوك يفرض علينا الإقرار بأن هذا (التطفيل) بمختلف تسمياته كان في بادئ الأمر مدفوعاً بالحاجة الحقيقية للطعام وباعثه الإحساس بالجوع والحرمان وهو ما تُشير إليه بعض المصادر في محاولة منها لتلمس وجوه أخرى لاشتقاق لفظة الطفيلي فذهبت إلى القول بأن هذا اللفظ مشتق من (الطفل) وهو الظلمة لِأن الفقير من العرب كان يحضر الطعام الذي لم يدع إليه مستتراً بالظلمة لئلا يُعرف(١٥)٠

غير أن هذا السلوك ما لبث أن تحول بعد حين (على أيدي فئة من الطفيليين) من سلوك مدفوع بالحاجة الحقيقية للطعام إلى سلوك يجد متعة خاصة في اقتحام الخصوصيات الاجتماعية القائمة على صُنع الأطعمة والمشروبات من غير التضور جوعا أو وجود حرمان حقيقي٠وقد وصف فعلهم هذا في كتب التراث بأنه مشتق من (الظلمة) أيضا ولكن بلحاظ أخر ينظر إلى احد الأمرين:

أنهم سُموا ب(الطفيليين)لإظلام أمرهم على الناس فلا يدرى من دعاهم(١٦)٠

أو أنهم سُموا بذلك من الطفل لهجومهم على الناس كهجوم الليل على النهار(١٧)٠

والأدلة على وجود هذه المجموعة من المتطفلين من غير جوع حقيقي كثيرة؛لعل أقربها إلينا ما نجده في كتاب الخطيب البغدادي ،فقد خصص باباً يحكي عن هؤلاء وضعه تحت عنوان (باب من طفل من

الأكابر والأشراف وأهل العلم والأدب)(١٨)وقد ذكر حكايات لبعض الشخصيات التي كانت أبعد ما تكون عن الحاجة الحقيقية للطعام أو الإحساس بالحرمان(١٩).

ويظهر واضحا أن هذه الفئة الأخيرة بالذات هي من شكلت ما يمكن أن نطلق عليه(أدب الطفيليين) وهي مادة أدبية خاصة بهم ،قد تنوعت بين الحكايات ،والنصائح الوصايا ،والأسئلة و الأجوبة.

وهذه الفئة تصرح بالتطفيل ولا تتكتم به ،وإذا كانوا يتسترون وينكرون التطفل فما ذاك إلاّ لِأجل أن يدخلوا البيوت و يحضروا الولائم ؛أما فيما بعد ذلك فإن الطفيلي لا يأنف من التصريح بأنه طفيلي على خلاف غيره من الشخصيات الهامشية التي عاصرت ظهور التطفل كشخصية البخيل التي تجتهد في إخفاء صفة البخل مثلاً.وهو اعتراف منها أن البخل رذيلة(١٩).

فالطفيليون يصرحون بكل وضوح عن توجهاتهم ، ويعبرون عن أنفسهم بضمير الجمع (نحن) ويجاهرون بالتطفيل ويفخرون به ، وهذا يعني أن شخصية الطفيلي على ما يبدو منسجمة مع ذاتها ، فهي لا ترى في هذا السلوك رذيلة ، ولذا نجد أحدهم وهو يعبر عن سلوك جماعته يرى انه إذا لم تكن ثمة دعوة فان التطفل خير من يدعوهم إلى حضور الولائم تلك فيقول :

نحن قوم إذا دُعينا أجبنا   ومتى نُنسَ يدعُنا التّطفيل
ونقل علّنا دعّينا فغبنا   واتانا فلم يجدنا الرسول(٢٠)

في حين يراه آخر من الخلق الكريم إذ يقابل جفاء الناس بصلتهم فيقول :

نحن قوم إن جفا النّا   س وصلنا من جفانا
لا نبالي صاحب الدّا   ر نسينا أم دعانا(٢١)

ويراه آخر من الغنيمة التي ينبغي السعي إليها مهما كان المكان بعيداً لأنها بلا ثمن فيقول :

نحن عبيد البطون نأكل ما   ندعى إليه ولو إلى عدن
نأكل ما جاءنا ولا سيما   إذا ظفرنا به بلا ثمن(٢٢)

ويراه آخر من صنيع الإقدام المحمود الذي لا يحسنه إلا الكرام فيقول :

نحن قوم نحسن ألاقدام في وقت الزحام   هكذا فليكن التطفيل تطفيل الكرام (٢٣)

في حين يراه آخر من محبة هدي الرسول القاضي بإجابة الدعوة مهما كانت متواضعة وبسيطة فيقول:

نحن قوم نحب هدي رسول الل   ه هديا به الصواب أصبنا
فادعنا كلما بسطت فانا   لو دعينا إلى كراع اجبنا (٢٤)

فضلاً عن نصوص أخرى تصرح بانتهاج هذا التطفيل صراحة(٢٥) على نحو واضح لا لبس فيه .

دواعي التطفيل:

وليست الإجابة عن هذا السؤال بالأمر الهين؛ذلك أن الطفيلي ذو شخصية معقدة بعض الشيء و قد عصفت بها الظروف الاجتماعية والنفسية،فصاغتها في قالب فريد ،اقل ما يُقال عنه أنه يجمع الأضداد، فالعلم والأدب لا يقفان عائقاً في هذه الشخصية عن بذل ماء الوجه في سبيل الحصول على أكلة،والمعرفة الدقيقة بالنصوص والأحكام الدينية لا يتقاطعان مع تحمل الإهانة من اجل لقمة ،والذكاء الحاد والفطنة المتوقدة لا يتعارضان مع التوبيخ الشديد طمعا في الدخول إلى وليمة.

وعلى الرغم من كل ذلك يمكن تلمس بعض الأسباب التي نعتقد أنها كانت تقف وراء هذا الاندفاع في سلوك التطفيل ، يأتي في مقدمتها ما يمكن أن نصطلح عليه ب(متعة التطفيل) التي لا تتحقق إلا بخرق المألوف من العادات، ولعل أصدق مصاديق هذه الرغبة في الحصول على هذه المتعة ما نجده في حكاية تطفل إسحاق بن إبراهيم الموصلي إذ يقول : (غدوت يوماً و أنا ضَجِر من ملازمة دار الخلافة و الخدمة فيها،فخرجت، و ركبت بُكرة ، و عزمت على أن أطوف الصحراء، و أتفرج ...)(٢٦) ثم كانت بعد ذلك قصة تطفله على بيت المغنية.

ويظهر واضحاً أن مبعث هذا الخروج الذي انتهى بتطفل هذا الرجل بباب تلك المرأة ؛كان محاولة منه للتخلص من هذا السياق الرتيب الذي أفضى بالرجل إلى حالة من الملل لم يجد بداً من كسره علّه يظفر بمتعة جديدة فكان التطيفل سبيلها.

وما أراده الموصلي هنا هو ما عبر عنه عثمان بن درّاج أحد أشهر رجال التطفيل شعراً بقوله:

لذّة التطفيل دومي   وأقيمي لا تريمي
أنت تشفين غليلي   وتُسلّين همومي(٢٧)

وعبر عنه أحد الطفيليين أيضا بقوله:

إن شكري لمنة التطفيل   و أياديه منذ دهر طويل
كم تراني قد نلت من لذة العي   ش بأسبابه وحظ جزيل
و تمتعت من طعام لذيذ   و سماع فيه شفاء العليل
فإذا ما عرفت مجتمع الإخ   وان في بيت صاحب أو خليل
كان إتيانه صواباً على الان   س ولم أجتنب كفعل الثقيل
و جعلت السعي السبيل إلى ذا   ك و لم أنتظر مجيء الرسول
فأبن لي أين اجتماعكم اليو   م إلى ذي سماحة أوبخيل؟

فلعلي أكون لا أعرف الدا   ر فأحتال في حضور الدليل (٢٨)

فهذا التطفيل بحسب ما يراه الشاعران هنا هو السبيل لنسيان الهموم و التخلص من الآلام و الاوجاع. و الانسياق وراء التطفيل إنما كان يمثل حلاً مناسباً عند هؤلاء الأشخاص لِأنه يستلزم تغّير المكان الذي تم الاعتياد عليه أولاً، ويضع الطفيلي في أجواء جديدة مليئة بالفرح والسرور ثانياً، ويوفر له ألواناً مختلفة من الأطعمة ثالثاً وهي الأمور التي تعلل بها عثمان بن درّاج عندما عرض عليه سعيد بن عبد الكريم الخطابي أن يترك التطفيل مقابل أن يجعل له وظيفة قائلاً: (ويحك!إني أبخل بأدبك وعلمك، وأضنّ بك عما أنت فيه من التطفيل ولي وظيفة راتبه في كل يوم ، فالزمني وكن مدعوّاً، أصلح لك مما تفعل، فقال : يرحمك الله فأين لذّة الجديد ، وطيب النقل كل يوم إلى مكان ؟ وأين هُويناك ووظيفتك من ألوان الوليمة؟ قال : فأما إذا ثبت ذاك :فإذا ضاقت عليك فأتني. قال : أمّا هذا فنعم)(٢٩) .

أما الأمر الأخر الذي يمكن أن يكون أحد دوافع التطفيل فهو ما يمكن أن نطلق عليه بالتمرد الاجتماعي وعدم الاكتراث بالقيم السائدة ، وهو يشعرنا بأن بعض الطفيليين كانوا يحتفظون بوجهات نظر سلبية اتجاه الناس، مع حالة من اليأس من خيرهم، وخصوصاً فيم يتعلق بناحية الإحسان وتقديم العون والمساعدة، ولعل أحدهم قد صوّر تلك الأمور الأنفة شعراً بقوله :

ولما رأيت الناس ضنوا بمالهم   فلم يكُ فيهم من يهش إلى الفضل
ولم أرَ فيهم داعياً لِابن فاقة   يحن إلى شُرب و يصبو إلى أكل
ركبتُ طفيلياً وطوّفت فيهم   ولم أكترث للحلم والعلم والأصل (٣٠)

فسبب اندفاع هذا الرجل نحو التطفيل هو ردة فعل متمردة ازاء حالة اليأس من الناس ونفعهم، مما أدى به إلى عدم المبالاة بالقيم الاجتماعية التي ذكرها

وقد يكون الانسياق وراء الأريحية النفسية يشكل أحد دوافع (تطفيل الكرماء) الذي لا يعد من التطفيل إلا على نحو من التسامح، إذ يندفع هؤلاء الأشخاص بصورة عفوية في التعاطي مع المجريات من غير روية مثلما حصل عندما (مر عبد الله بن جعفر ومعه عدة من أصحابه بمنزل رجل قد أعرس وإذا مغنية تقول:

قل لكرام ببابنا يلجوا   ما في التصابي على الفتى من حرج

فقال عبد الله لأصحابه : لِجوا فقد أذن لنا القوم، فنزل و نزلوا فدخلوا فلما رآه صاحب المنزل تلقاه وأجلسه على الفراش ...)(٣١) وكانت النهاية أن دفع عبد الله بن جعفر للرجل كل ما أنفقه في الوليمة بأسرها وزاده معونة، وهذا الدخول إلى هذه الوليمة وأن لم يكن بدعوة مسبقة إلا إنها ليست من قبيل

التطفيل الحقيقي ، بدليل هذا الترحاب من صاحب المنزل ، فضلاً عن تعويض صاحب الوليمة بمبلغ يفوق ما انفق فيها .

الخصائص العامة لشخصية الطفيلي :

العناية بالمظهر الخارجي :

يظهر الطفيلي في كثير من الأحيان من خلال النصوص التي وردت في أدب الطفيليين بمظهر الشخصية التي تدرك تماما أنه شخص غير مرحب به ،ولذا فهو قد أعد لهذا الأمر عدته باعتماده على جملة من الأمور التي شكلت بالتالي شخصيته الطفيلية، يأتي في مقدمتها : عناية الطفيلي بمظهره الخارجي ، فهو متأنق في ملبسه ،نظيف الثياب ، عطر الرائحة،وهذا ما نجده في حديث منصور بن علي الجهضمي أحد المتبرمين من الطفيليين إذ يقول :(كان لي جار طفيلي من أحسن الناس منظرا وأعذبهم منطقا و أطيبهم رائحة و أجملهم ملبوسا،وكان من شأنه أني إذا دُعيت إلى دعوة تبعني، فيكرمه الناس من اجلي ، ويظنون أنه صاحب لي،...)(٣٢).

ومن شأن هذه العناية بالمظهر الخارجي أن تحقق للطفيلي عنصر الإيهام الذي يعد عنصرا فاعلا في توفير المقبولية له،حتى غدت هذه وصية ثابتة لمن تصدى لنصح الطفيليين، وهو ما وجدناه في رسالة تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني التي وضعها في فن التطفيل،إذ يقول : (فالبس من ثيابك الجميلة قشيبها ،وضوّع بالمندل الرطب طيبها)(٣٣).

وقصة (طفيلي المعتصم) معروفة ،وهو شخص عزم يوما على أن يتطفل على المأمون و المعتصم بإيهام كلا منهما انه من خواص الأخر وأول وسائله لتحقيق بغيته :عناية تامة بمظهره الخارجي ، فـ(استعد لذلك اليوم،ودخل الحمام سحرا، وتطّيب ، ولبس، وركب عند طلوع الشمس إلى دار المعتصم وقال للحاجب : عرّف الأمير أني رسول أمير المؤمنين...)(٣٤).وانتهت القصة بإعجاب المأمون بهذا الطفيلي وتقريبه.

الإلمام بالنصوص و الأحكام الدينية:

أما الأمر الأخر الذي تحصن به الطفيلي فهو الإلمام بالمعرفة العامة التي تؤهله للرد على المفاجآت المختلفة ، فنجده ملماً بالنصوص و الأحكام الدينية التي يُحسن استغلالها في الدفاع عن التطفيل (٣٥) ،فبنان الطفيلي وهو من أشهر الطفيليين قد حسم أمره في حلّية ما يأكله من طعام في تطفله ، فقد أشكل عليه احدهم بمضمون حديث للنبي قائلاً : (من دخل إلى طعام لم يُدع إليه دخل لصّاً، وخرج معيرّاً ؛فقال : أما إنا فلا آكله إلا حلالاً. قيل له : وكيف ذاك؟ قال أليس صاحب الوليمة يقول للخبّاز أبدا :زد في كلّ شيء فانه يجيئُنا من نُريد ومن لا نريد؟ فانتم ممن يريد وأنا ممن لا يريد)(٣٦).

فبنان الطفيلي قد وظف عبارة (من لا نريد) التي يقولها صاحب الوليمة ليفهم منها أنها إجازة بالفحوى ،لان صاحب الدعوة قد ادخل في حسبانه مجيء الطفيليين ،و أمر طباخه أن يزيد في كل شيء توقعا لمجيئهم.

وإذا كان بنان قد من تمكن الالتفاف على مضمون الحديث ؛ فان طفيليا أخر لم يقنع إلا بان يضعف سند هذا الحديث ويضعف مضمونه لان إجماع المسلمين على خلافه متهما من احتج بهذا الحديث : بأنه لا يستحي من أن يحدث : (عن درست بن زياد وهو ضعيف ، عن إبان بن طارق وهو متروك الحديث بحكم رفعه الله إلى النبي (ص) والمسلمون على خلافه، لان حكم السارق القطع والمغير يعزر على ما يراه الإمام ، وهذان حكمان لا ينفذان على داخلٍ دارا في مجمع فيتناول لُقما من فضل الله الذي آتى أهلها ثم لا يحدث حدثا حتى يخرج عنها ، وقد قال النبي (ص) : (طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة)، حدثنا بذلك أبو عاصم النبيل عن ابن جريح عن أبي الزبير عن جابر عن النبي (ص)،فأين أنت عن هذا الحديث الصحيح الإسناد و المتن؟)(٣٧).

وبغض النظر عن الدقة العلمية التي تتصف بها حجج هذا الطفيلي ؛فانه استطاع أن يسكت خصمه،ويجعله في موقف حرج لا يحسد عليه. وهو ما يؤشر تسلح الطفيلي بالمعرفة ليتمكن من توظيفها في خدمة التطفيل.

ومن أمثلة توظيف النصوص القرآنية في التطفيل ما ورد من اجتماع (جماعة على عصيدة فأخذ بعضهم لقمة وألقاها في السمن وقال {فكبكبوا فيها هم والغاوون}[الشعراء:٩٤] وجر السمن إليه وقال الآخر {إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور}[الملك:٧] وجر السمن إليه وقال الآخر {وبئر معطلة وقصر مشيد}[الحج:٤٥] وجر السمن إليه فقال الآخر {أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً أمراً}[الكهف: ٧١] وجر السمن إليه فقال الآخر {إنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز}[السجدة:٢٧] وجر السمن إليه فقال الآخر{ فيهما عينان تجريان }[الرحمن :٥٠]وجر السمن إليه فقال الآخر فيهما {عينان نضاختان}[الرحمن :٦٦] وجر السمن إليه فقال الآخر {فالتقى الماء على أمر قدر }[القمر:١٢]وجر السمن إليه فقال الآخر {فسقناه إلى بلد ميت }[فاطر:٩]وجر السمن إليه فقال آخر {وقيل يا أرض ابلعي ماءك وسماء أقلعي}[هود:٤٤] وخلط السمن بما بقي من العصيدة فأخذه كله)(٣٨)

ومن أمثلته هذا التوظيف ما ورد من حكاية بنان الطفيلي مع شخص كان يأكل الحلوى، إذ أراد بنان أن يستدرج الرجل كي يتفضل عليه بالحلوى، فما كان منه إلا أن يطلب قطع الحلوى بنصوص قرآنية قائلا(يا سيدي: { إن إلهكم لواحد }[الصافات:٤] فأعطاني واحدة، فقلت: { إذ أرسلنا إليهم اثنين }[يس:١٤] فأعطاني ثانية، فقلت: {فعززنا بثالث }[يس:١٤] فأعطاني ثالثة، فقلت: {فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك }[البقرة:٢٦٠] ، فأعطاني رابعة، فقلت: { خمسة سادسهم كلبهم }[الكهف:٢٢] ،

فأعطاني خامسة، فقلت: { خلق السماوات والأرض في ستة أيام }[الأعراف:٥٤] ، فأعطاني سادسة، فقلت: { سبع سماوات طباقا }[الملك:٣] فأعطاني سابعة، فقلت: { ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين }[الإنعام: ١٤٣] فأعطاني ثامنة، فقلت: { تسعة رهط يفسدون في الأرض }[النمل: ٤٨] فأعطاني تاسعة، فقلت: { تلك عشرة كاملة }[البقرة:١٩٦] ، فأعطاني عاشرة، فقلت: { يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً }[يوسف:٤]ٍ، ، فأعطاني الحادية عشرة، فقلت: { إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله }[التوبة:٣٦] فأعطاني الثانية عشرة. فقلت: { إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين }[الأنفال:٦٥] فحلق بإلجام إليّ وقال: كل يا ابن البغيضة، فقلت: والله لئن لم تعطنيه لقلت: { وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون }[الصافات:١٤٧] قال: فضحك من قولي وأمر لي بثلاثة آلاف درهم)(٣٩).

ويظهر من هذه الأمثلة أن للإحاطة بالنصوص هدفا وحيدا عند الطفيليين ؛وهو الحصول على الطعام ،وان هذه النصوص موظفة لهذا الغرض.

الذكاء الحاد:

وثمة أمر أخر يكشفه أدب الطفيليين ؛ ذلك أن شخصية الطفيلي امتازت بالذكاء الحاد بحسب ما تصوره نصوص هذا الأدب، غير أن هذا الذكاء مسخر للغرض ذاته و هو كيفية الحصول على الطعام،وهو ما دعا ابن الجوزي إلى إن يضع المتطفلين في عداد الأذكياء ، فخصص الباب السابع و العشرين من كتاب الأذكياء لذكر طرف من فطن المتطفلين.

وتتجلى مصاديق هذا الذكاء في الاحتيال بشتى الأساليب للدخول إلى الولائم ؛وغالبا ما يوظف الطفيلي ذكائه في هذا الباب ، فيأتي بالعجب العجاب، فهذا طفيلي قدم إلى وليمة فوجد الباب قد أُرتج دونه ، فما كان منه إلا أن يسأل عن صاحب الصنيع إن كان له ولد غائب أو شريك في سفر؟فاخبر عن ولد له في بلد ما،(فأخذ رقا أبيض وطواه وطبع عليه، ثم أقبل متدللاً، فقعقع الباب قعقعة شديدة، واستفتح، وذكر أنه رسول من عند ولد الرجل. ففتح له الباب، وتلقاه الرجل فرحاً، وقال: كيف فارقت ولدي؟ قال له: بأحسن حال، وما أقدر أن أكلمك من الجوع. فأمر بالطعام فقدم إليه، وجعل يأكل، ثم قال له الرجل: ما كتب كتاباً معك؟ قال: نعم، ودفع إليه الكتاب. فوجد الطين طرياً.فقال له : أرى الطين طرياً، قال: نعم. وأزيدك أنه من الكد ما كتب فيه شيئاً. فقال: أطفيلي أنت؟ قال: نعم أصلحك الله. قال: كل: لا هنأك الله.)(٤٠).

وهذا طفيلي أخر منع من الدخول(فذهب إلى أصحاب الزجاج ورهن رهناً، وأخذ عشرة أقداح، وجاء وقال للبواب: افتح حتى أدخل هذه الأقداح التي طلبوها. ففتح له، ودخل وأكل وشرب مع القوم، ثم حمل الأقداح، وردها إلى صاحبها، وقال: لم يرضوها، وأخذ رهنه)(٤١).

الاعتماد على الحدس:

والطفيلي قد يغريه هذا الذكاء فيدعوه إلى الاعتماد على حدسه، وربما أورده ذلك في المهالك؛كما حصل ذلك مع الطفيلي الذي أبصر مجموعة من زنادقة البصرة،كان المأمون قد أمر أن يُحملوا إليه،فقال الطفيلي في نفسه:(ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع، فانسل فدخل وسطهم، ومضى بهم المتوكلون حتى انتهوا بهم إلى زورق قد أعد لهم، فدخل الزورق، فقال الطفيلي: هي نزهة. فدخل معهم، فلم يكن بأسرع من أن قيدوا وقيد معهم الطفيلي، ثم سير بهم إلى بغداد، فأدخلوا على المأمون، فجعل يدعو بأسمائهم رجلاً رجلاً، فيأمر بضرب رقابهم، حتى وصل إلى الطفيلي، وقد استوفى العدة، فقال للموكلين: ما هذا؟ قالوا: والله ما ندري، غير أنا وجدناه مع القوم، فجئنا به.فقال له المأمون : ما قصتك؟ ويلك! قال: يا أمير المؤمنين. امرأته طالق إن كان يعرف من أحوالهم شيئاً، ولا مما يدينون الله به، إنما أنا رجل طفيلي رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة . فضحك المأمون، وقال : يؤدب)(٤٢).

الطرافة والهزل:

ومن نهاية هذه الحكاية المتقدمة نعرف أن الطفيلي إذا وقع في بعض المشاكل من هذا القبيل بدافع من اعتماده على حدسه ؛فطرافته وهزله وإضحاكه قد تنفع في تخليصه منها، وهي خصيصة أخرى ميزت شخصية الطفيلي ،كما حصل ذلك مع طفيلي نظر (إلى قوم من الزنادقة يسار بهم إلى القتل، فرأى لهم هيئة حسنة وثياباً نقية، فظنهم يدعون إلى وليمة، فتلطف حتى دخل في لفيفهم وصار واحداً منهم، فلما بلغ صاحب الشرطة قال: أصلحك الله، لست والله منهم، وإنما أنا طفيلي ظننتهم يدعون إلى صنيع فدخلت في جملتهم. فقال: ليس هذا مما ينجيك مني، اضربوا عنقه. فقال: أصلحك الله، إن كنت ولا بد فاعلاً فأمر السياف أن يضرب بطني بالسيف، فإنه هو الذي ورطني هذه الورطة. فضحك صاحب الشرطة وكشف عنه، فأخبروه أنه طفيلي معروف، فخلى سبيله)(٤٣).

وربما كانت الطرافة ومعرفته بالنصوص القرآنية سبيلا لتخليصه من بعض هذه المشاكل التي يوردها الاعتماد على الحدس، لأنهما يتعاضدان معا لخلق جو المرح وإضحاك المقابل، كما حصل مع احد الطفيليين إذ نظر (إلى قوم ذاهبين في وجه، فعلم أنهم يذهبون إلى وليمة، فقام وتبعهم فإذا هم شعراء قد قصدوا باب السلطان بمدائح لهم، فلما أنشد كل واحد منهم شعره وأخذ جائزته، ولم يبق إلا الطفيلي،

وهو جالس لا ينطق، قيل له: أنشد، فقال: لست بشاعر. قالوا: فمن أنت؟ قال: أنا من الغاوين الذين قال الله جل ذكر فيهم:

{ والشعراء يتبعهم الغاوون }[الشعراء :٢٢٤] فضحك الخليفة وأمر له بمثل جائزة الشعراء)(٤٤).

حضور البديهة وسرعة الجواب:

والطفيلي بعد ذلك يمتاز بأنه قوي البديهة سريع الجواب عن كل ما يرد عليه من محرجات الحوادث،لا يطيل التأمل فتضيع فرصته ، فكأنه قد اعد لكل طارئ جوابه،فهذا طفيلي دخل على (قوم فقالوا: ما دعوناك، فما الذي جاء بك؟ قال: إذا لم تدعوني ولم أجئ وقعت وحشة، فضحكوا منه وقربوه.

جاء آخر إلى قوم ودق الباب عليهم، فقالوا: من أنت؟ قال: أنا الذي رفعت مئونة الإرسال عنكم)(٤٥).

وهذه البديهة وسرعة الجواب لا تقتصر على الردود النثرية ؛ وإنما قد يُجيب الطفيلي شعرا من غير تأخر، كهذا الطفيلي الذي(أتى طعاماً لم يدع إليه، فقيل له: من دعاك؟ فأنشأ:

دعوت نفسي حين لم تدعني   فالحمد لي لا لك في الدعوة
وكان ذا أحسن من موعد   مخلفه يدعو إلى الجفوة

ودخل طفيلي في صنيع رجل من القبط، فقال له: من أرسل لك؟ فأنشأ:

أزوركم لا أكافيكم بجفوتكم   إن المحب إذا ما لم يزر زارا

فقال له القبطي: زر زارا، ليس ندري، من هو؟ اخرج من بيتي)(٤٦).

وربما عمد الطفيلي إلى الجمع في جوابه بين النثر والشعر إمعانا في قوة حجته،ودحضا لمقولة من اعترض على سلوكه،وكل ذلك على البديهة وحضور الجواب ، مثلما حصل مع الطفيلي الذي مر (على قوم وعندهم وليمة، فاقتحم عليهم وأخذ مجلسه مع من دعي، فأنكره صاحب المجلس. فقالوا له: لو تأنيت أو وقفت حتى يؤذن لك أو يبعث إليك؟ قال: إنما اتخذت البيوت ليدخل فيها، ووضعت الموائد ليؤكل عليها، وما وجهت بهدية، فأتوقع الدعوة، والحشمة قطيعة، واطراحها صلة، وقد جاء في الأثر: " صل من قطعك، وأعط من حرمك " . وأنشد:

كل يوم أدور في عرصة الدا   ر أشم القتار شم الذباب
فإذا ما رأيت آثار عرس   أو دخاناً أو دعوة الأصحاب
لم أعرج دون التقحم لا أر   هب طعناً أو لكزة البواب
مستهيناً بمن دخلت عليهم   غير مستأذن ولا هياب
فتراني ألف بالرغم منهم   كل ما قدموه لف العقاب)(٤٧)

الاستثارة المقصودة:

والطفيلي غالبا ذو شخصية هادئة وادعة ما لم تُستثر،غير انه قد يعمد أحيانا إلى استثارة أصحاب الطعام ببعض وسائله اللغوية كوصفهم بالأوصاف غير المحمودة بغية إلجائهم لدفعها عنهم فيلزمهم بما ألزموا به أنفسهم تصديقا لمقولتهم،مثلما حصل مع الطفيلي الذي مر (بقوم يتغدون فقال: سلام عليكم معشر اللئام. فقالوا: لا والله، بل كرام. فثنى رجله وجلس، وقال: اللهم اجعلهم من الصادقين، واجعلني من الكاذبين)(٤٨)

وقد يعمد إلى استثارت أصحاب الطعام عن طريق طرح الأسئلة عليهم،فيوقع بهم من إجابتهم ويجعلهم حيارى لا يدرون ما يصنعون معه فيظفر ببغيته من الأكل،كهذا الطفيلي الذي دخل (على قوم يأكلون فقال: ما تأكلون؟ فقالوا من بغضه: سماً. فأدخل يده وقال: الحياة حرام بعدكم(٤٩).

العلاقات الاجتماعية النفعية:

أما فيما يخص علاقة الطفيلي الاجتماعية فهي تقوم إلى حد كبير على المنفعة المادية،فعلاقته مع رفاقه من الطفيليين سرعان ما تتحول إلى قطيعة من غير رجعة إذا ما شعر الطفيلي إن هذه العلاقة قد تُضر بحصته من الطعام،كما حصل مع هذا الطفيلي الذي قيل له(لم قطعت فلاناً صديقك؟ قال: لأنه يسبقني إلى بيضة البقيلة، وقفا السمكة، وخاصرة الجدي)(٥٠).وهذه أسباب أكثر من كافية لقطع الصلة عند الطفيلي.

أما إذا كان الطفيلي هو صاحب الوليمة ،عندها لن يدخر وسعا في تدبير الحيل المناسبة للتخلص من الطفيليين ، فهذا احدهم صنع وليمة (فأتاه كل طفيلي، فلما رآهم عرفهم، فرحب بهم ثم أدخلهم، فرقاهم إلى غرفة بسلم، وأخذ السلم حتى فرغ من إطعام الناس، فلما لم يبق أحد أنزلهم وأخرجهم)(٥١)

وقد لا يكتفي بحيلة (السلم) وإنما يعمد إلى التشفي منهم عن طريق التهكم بهم،كما تذكر لنا ذلك هذه الحكاية (عرس طفيلي فأتاه طفيليان في أول الناس فأدخلهما وجاء إلى غرفة له يرتقي إليها بسلم فوضع السلم وقال اصعدا لتبعدا من الأذى وأخصكما بفائق الطعام فصعدا فلما حصلا في الغرفة نحى السلم ووضع المائدة وأطعم أصدقاءه وجيرانه وهما مطلعان عليه فلما فرغ وضع السلم وقال انزلا فدفع في إقفائهما وقال انصرفا راشدين لا أصفر الله ممشاكما قد قضيتما حق أخيكما)(٥٢).

العلاقات العاطفية المؤقتة:

أما المشاعر العاطفية عند الطفيلي فإنها لا تمر إلا عن طريق المعدة أولا، فالمعدة الفارغة لا تتذكر المحبوب؛ أما إذا امتلأت فان المحبوب أول ما يُذكر ولا أدل على ما قلنا من هذه الحكاية(اصطحب شيخ وحدث من الأعراب، فكان لهما قرص في كل يوم، وكان الشيخ متخلع الأضراس بطيء الأكل،

فكان الحدث يبطش بالقرص، ثم يقعد يشتكي العشق، ويتضور الشيخ جوعاً، وكان اسم الحدث جعفراً. فقال الشيخ فيه:

لقد رابني من جعفر أن جعفراً   يطيش بقرصي ثم يبكي على جمل
فقلت له لو مسك الحب لم تبت   سميناً وأنساك الهوى شدة الأكل

وقال الحدث:

إذا كان في بطني طعامٌ ذكرتها   وإن جعت يوماً لم تكن لي على ذكر
ويزداد حبي إن شبعت تجدداً   وإن جعت غابت عن فؤادي وعن فكري)(٥٣)

وما هذا بالأمر المستغرب عند الطفيليين؛ لان الحب عندهم قد تحول مكانه من القلب إلى المعدة كما يقول ذلك أشعب احد أشهر الطفيليين :

ألا أخبرت أخباراً   أتت في زمن الشدة
وكان الحب في القلب   فصار الحب في المعدة(٥٤)

وغالبا ما تنتهي علاقة العشق بالقطيعة إذا لم ترفد بالطعام، كما حصل مع أبي القماقم الذي كان يعشق جارية ويحاول أن يستغلها في اصطناع الطعام و إرساله إليه،(فبعث إليها أن إخوانا لي زاروني، فابعثي إليّ برءوس، حتى نتغدى ونصطبح على ذكرك. ففعلت، فلما كان في اليوم الثاني بعث إليها: إنا لم نفترق فابعثي إليّ سنبوسكا حتى نصطبح اليوم على ذكرك، فلما كان في اليوم الثالث بعث إليها: إن أصحابي مقيمون فابعثي إلى بقلية جزورية شهية، حتى نأكلها ونصطبح على ذكرك، فقالت لرسوله : إني رأيت الحب يحل في القلب، ويفيض على الأحشاء والكبد، وإن حب صاحبي هذا ليس يجاوز المعدة)(٥٥)

تقديم النصح والإرشاد للمتعلمين:

الطفيلي ذو علاقة قائمة على شيء من التعاون المتبادل مع رفاقه الطفيليين فيما يخص النصح والإرشاد، وقد خلّف ادب التطفيل نصوص متعددة من النصائح و الوصايا تدور حول السلوكيات التي ينبغي أن يسير عليها الطفيلي المستجد كي يؤدي مهمته على أحسن صورة ، وهذه الوصايا لا تترك حتى أدق التفاصيل الصغيرة المتعلقة بالتصرفات في الولائم.

والطفيلي (المعلم) سخي إلى حد لا يوصف بإعطاء النصائح لمن طلبها من المتعلمين الطفيليين؛ لأنه حريص على ديمومة هذه الصنعة، ولطالما كان يشكو من تجاهل الناس لما يحسنه في هذه الصنعة ؛ فعلى الرغم من خدمة الطفيلي المتطاولة في هذه الصنعة إلا إن أحدا لم يبعث إليه صبيا حتى يتعلم على يديه سر هذه الصنعة، وهو ما دعا بنان الطفيلي إلى أن ينعى على نفسه كسادها أمام جمع من

الناس قائلا:(ما في الدنيا صناعة أخس من صناعتي! قالوا: وكيف ذاك يا أبا الحسن؟ قال: أنا أطقل منذ ثلاثين سنة ما اسلموا إلى صبياً يتعلم)(٥٦).

بل ربما تعدى الأمر إلى أن يقدم الطفيلي نصائحه حتى لمن لم يسأله النصح إمعانا منه في النصيحة الطفيلية للمبتدئين مع حرقة واضحة على عدم الحذق بهذه الصنعة،كما حصل ذلك مع الشيخ الطفيلي الذي نظر إلى احد المبتدئين فرآه يأكل من ثريد ابيض ويترك الثريد الأصفر، فما كان من الشيخ إلا صفعه قائلا له: (لَمِ لك، إذا كنت في صناعة فتحدّق فيها . أما عرفت أن الفرق بينهما الزعفران؟)(٥٧).

أقدم الوصايا الطفيلية هي وصية طفيل الأعراس أو العرائس، الذي يعد رأس الطفيليين، وقد تضمنت أهم السلوكيات الواجب إتباعها عند الدخول إلى العرس،فهي تنصح الطفيلي بأن يكون هادئا ساكنا فلا يكثر من التلفت الذي قد يجلب الشك في أمره، كما تضمنت مسألة الاعتناء باختيار مكان الجلوس ،وضرورة عدم النظر في عيون الناس حتى يحقق عنصر الإيهام بأنه من أهل الوليمة،كما احتوت على كيفية التعامل مع البواب الغليظ (وهو العدو التقليدي للطفيلي) بوسطية يسوسها الاعتدال بين الشدة واللين إذ يقول : (إذا دخل أحدكم عرساً فلا يلتفت تلفت المريب، ويتخير المجالس، وإن كان العرس كثير الزحام فليمض، ولا ينظر في عيون الناس، ليظن أهل المرأة أنه من أهل الرجل ويظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة، فإن كان البواب غليظاً وقاحاً فتبدأ به وتأمره وتنهاه، من غير تعنف عليه، ولكن بين النصيحة والإدلال)(٥٨).

يحتل المكان و اختياره أهمية خاصة في ادب وصايا الطفيليين،فالجلوس الذي يُمكن الطفيلي من المائدة أفضل عنده من زيادة أصناف الطعام على الرغم من حرص الطفيلي الشديد على زيادة هذه الأصناف ،ولذا يقول بنان الطفيلي : (التمكن على المائدة خير لك من زيادة أربعة ألوان)(٥٩).

أما إذا ضاق الموضع في الجلوس على الأكل فالطفيلي لا يعدم حيلة مجربة لتوسعة المكان،ونصيحته في هذا الأمر جاهزة (إذا قعدت على مائدة وكان موضعك ضيقاً، فقل للذي بجنبك: لعلّي ضيقت عليك، فإنه يتأخر إلى خلف، ويقول: سبحان الله، لا والله يا أخي موضعي واسع، فيتسع عليك موضع رجل)(٦٠).

والمكان المفضل عند الطفيلي هو الجلوس على اليمين ؛والسبب في ذلك واضح إذ إن الطفيلي يدرك تماما أن البدء في هكذا محافل يكون من اليمين ولذا فانه سيحظى من كل شيء بأوله وأفضله، فتراه يوصي مريديه من الطفيليين بقوله: (إذا دعاك صديق لك فاقعد من يمنة البيت، فإنك ترى كل ما تحب، وتسودهم في كل شيء، وتسبقهم إلى كل خير، وأنت أول من يغسل يده، والمنديل جاف والماء واسع، والخوان بين يديك يوضع، والنبيذ أول القنينة، ورأسها تشربه، والبقل منتخب يوضع بين يديك، وتكون

أول من يتبخر، وإذا أردت أن تقوم لحاجة لم تحتج أن تتخطاهم، وأنت في كل سرور إلى أن تتصرف)(٦١).

وبعد اختيار المكان المناسب تتجه وصايا الطفيليين إلى كيفية التعامل مع المأكولات الموجودة على المائدة،وأول ما ينصح به هو عدم ترك الطعام رجاء أن يجد خيرا منه،ثم كيفية التصرف في حال قلة الطعام أو كثرته ،ثم عدم الإكثار من شرب الماء على المائدة لأنه يمنع من التزود من الطعام،ثم ينصح بان يتعامل مع الطعام تعامل من لم يره من قبل ولن يراه من بعد ذلك، كل هذه الوصايا نجدها مقدمة بسخاء من طفيلي (معلم) إلى احد المستجدين ألح في طلب النصيحة قائلا : (أوصني. فقال: لا تصادفن من الطعام شيئاً فترفع يدك عنه وتقول: لعلي أصادف ما هو أطيب منه، فإن هذا عجز ووهن. قال: زدني. قال: إذا وجدت خبزاً فيه قلة فكل الحروف، فإن كان كبيراً فكل الأوساط. قال: زدني. قال: لا تكثرن شرب الماء وأنت تأكل فإنه يصدك عن الأكل ويمنعك أن تستوفى. قال: زدني. قال: إذا وجدت الطعام فكل منه أكل من لم يره قط، وتزود منه زاد من لا يراه أبداً. قال: زدني. قال: إذا وجدت الطعام، فاجعله زادك إلى الله)(٦٢).

والأكل على طريقة الطفيليين لا يخلو من احتمال الاحتياج إلى الماء ؛لأنه عرضة للعطش أو الغصة بالطعام ، غير أن الطفيلي قد اوجد الحل لذلك سريعا، فقد(عطش رجل إلى جنب بنان في دعوة فقال بنان ارفع نفسك إلى فوق وتنفس ثلاثاً فإنه ينزل ما أكلته من الطعام)(٦٣).وهذا أولى من شرب الماء عند الطفيلي لأنه يصد عن الطعام كما مر علينا.

والأكل طقس يُمنع فيه الكلام عند الطفيليين لأنه يشغل عن الطعام؛ ولذا فهم يوصون بعدم الإكثار منه؛ لان

(من جلس على مائدة، وأكثر كلامه غش بطنه)(٦٤) ، أما إذا كان الشخص مضطرا للكلام حتى يساير من يقابله فهم ينصحونه بان لا يتكلم إلا بكلمة (نعم) فهي تؤدي الغرضين معا ؛ تساير المقابل ولا تمنع من الأكل ؛ولذا ينصح احدهم بالقول: (إياك والكلام على الطعام إلا أن تقول نعم فإنها مضغة)(٦٥).

ومما تقدم يتبين أن الطفيلي كما تُظهره نصوص ادب الطفيليين ،شخص معتن بمظهره الخارجي،ملم بالمعارف والنصوص والأحكام الدينية،ذكي على نحو لافت، معتمد على حدسه وان أورده في المهالك، مشتمل على الطرافة، قوي البديهة،حاضر الجواب،هادئ الطبع لا يعمد إلى الاستثارة إلا ليحصل على غرضه، ذو علاقة اجتماعية قائمة على النفعية، نلحظ ذلك في علاقته مع رفاقه الطفيليين و في علاقاته الغرامية، مع سخاء غير مشهود في بذل النصح والإرشاد للمتطفلين.

الخصائص العامة لأدب الطفيليين:

تنوع الأشكال الفنية:

قد تنوع هذا الأدب في صور مختلفة ؛ فمنه ما ورد على هيئة حكايات متباينة الطول و القصر ،وهي تشغل الحيز الأكبر في هذا الأدب،والسمة العامة التي تنتظم هذه الحكايات أنها تنتهي في الأعم الأغلب باكتشاف شخصية الطفيلي بعد أن يظفر بمراده،مع توفر بعض الحكايات على مقاطع شعرية تعزز مضمون الحكاية وقد مر علينا نماذج وافية من هذه الحكايات، ومنه ما جاء على صورة الأسئلة والأجوبة، وقد كان الطفيلي فيها سريعة البديهة حاضر الجواب كما لاحظنا ،ومنه ما وصلنا بأسلوب النصائح والوصايا،والتي رأينا الطفيلي فيها سخيا من غير تحفظ مثلما مر علينا.

سهولة اللغة والإيجاز:

وهذا الأدب قد اعتمد على لغة سهلة واضحة،تميل إلى الاستعمالات الوظيفية الحقيقية وتبتعد عن الاستعمالات المجازية إلا في بعض المواضع،مع ميل واضح إلى الإيجاز في العبارة، لان الطفيلي منشغل بمطلبه عن الخوض في التفاصيل التي قد تضيع الفرصة عليه؛ بل هو يرى أن الإكثار من الكلام خيانة للبطن.

غُلبة المقطعات الشعرية والبحور الخفيفة:

الأعم الأغلب من نصوص هذا الأدب تروى منسوبة إلى مجرد (طفيلي) ، وخصوصا تلك النصوص التي احتوت على نصوص شعرية فلا يُعرف قائلها؛ باستثناء بعض النصوص التي تُعزى لأسماء الطفيليين المشهورين، وتمتاز هذه النصوص الشعرية بأنها في الغالب مقطعات قصيرة ، تنتمي إلى البحور الخفيفة التي تتناسب مع أجواء المرح والبعد عن الجدية في تعاطي الأشياء.

حضور الجمل الإنشائية:

تسجل الجمل الإنشائية الطلبية حضورا فاعلا في ادب التطفيل ،وخصوصا في ادب الوصايا بوصفه يقدم مجموعة من الحلول العملية للطفيليين المتعلمين ، ويأتي أسلوبا الأمر و النهي في مقدمة هذه الأساليب ،كما نجد ذلك في نصيحة احد الطفيليين لأصحابه وقدخلوا إلى وليمة قائلا :(افتحوا أفواهكم، وأقيموا أعناقكم؛ وأجيدوا اللف، واشرعوا الأكف، ولا تمضغوا مضغ المتعللين، الشباع المتخمين؛ واذكروا سوء المنقلب، وخيبة المضطرب)(٦٦).

وقد يخرج هذان الأسلوبان عن حقيقتهما إلى غرض الدعاء حين يطلب أن يكون البواب رقيقا في تعامله مع الطفيلي ،كما نرى في دعاء هذا الطفيلي:(اللهم لا تجعل البواب لكازا في الصدور، دفاعا في الظهور؛ طراحا للقلانس؛ هب لنا رأفته وبشره وسهل لنا إذنه)(٦٧).أو حين يطلب احدهم من

الطفيلي أن يدعو له ،كما نجد ذلك في صيغ الأمر في دعاء بنان الطفيلي لرجل سأله الدعاء فقال:(اللهم ارزقه صحة الجسم وكثرة الأكل، ودوام الشهوة، ونقاء المعدة،وأمتعه بضرس طحون، ومعدة هضوم، مع السعة والدعة، والأمن والعافية)(٦٨).

وأسلوب الاستفهام يحضر في نصوص الطفيليين؛ولكن بخصوصية طفيلية إذ إن الطفيلي يستعمل الاستفهام ليرد به على استفهام سابق لم يعجبه، فهو استفهام خرج عن حقيقته أما للتهكم من السائل، وأما لإثارة روح المرح، فقد(قيل لبعضهم: لم تأكل بخمس أصابع؟ قال: ولي أكثر منها؟!)(٦٩).و(قيل لبعضهم: كل من قدامك. فقال: أترى من خلفي هو ذا آكل؟)(٧٠).و(دخل طفيلي على رجل قد دعا قوماً، فقال له صاحب

المنزل: يا هذا متى قلت لك تجئ؟ قال: ومتى قلت لي: لا تجئ؟)(٧١).

المحسنات البديعية:

ويظهر واضحا ميل هذه النصوص المتقدمة نحو استعمال الازدواج في إيراد الجمل ونعني به(تساوي الفقرتين في الطول مع السجع)(٧٢)،مع جنوح لاستعمال أسلوب الطباق بنوعيه: طباق السلب بان يكون احد الطرفين مثبتا والآخر منفيا، كما في النص المتقدم (تجيء)و (لا تجيء)،وطباق الإيجاب بذكر المعنى وضده ،كما في قول احد الطفيليين متهجما على الحمية عن الطعام مستعملا المطابقة بين (الشك) و (اليقين):(من احتمى فهو على يقين من مكروه الجوع، وفي شك من العافية)(٧٣).

الميل لاستعمال الجمل الشرطية:

والظاهرة الأوضح في أدبهم استعمال أسلوب الشرط كثيرا؛ ذلك أن الطفيلي على ما يبدو يضع كل الاحتمالات في حسبانه، فتراه يعمد إلى هذا الأسلوب الذي يتيح له وضع الحلول المناسبة لما قد يطرأ عليه ، وقد تقدمت وصية رأس الطفيليين وأسلوب الشرط واضح فيها تماما ،كما يتضح في قول احدهم:(إذا كنت على مائدة فلا تتكلمن في حال أكلك، وإن كلمك من لابد لك من جوابه، فلا تجبه إلا بقول: نعم، فإن الكلام يشغل عن الأكل؛ وقول نعم مضغة)(٧٤).وكما نجد أسلوب الشر ط في قول هذا الطفيلي لأحدهم: (لا تنادم أحدا، فإن كنت لابد فاعلا فنادم من لا يستأثر عليك بالمخ، ولا ينتهب بيضة البقلية، ولا يلتقم جلد الدجاجة،...)(٧٥)

التشويق باستعمال الإيضاح بعد الإبهام:

الطفيلي قد يلجأ إلى التشويق باستعمال أسلوب الإيضاح بعد الإبهام ، فيذكر عددا مقرونا بوصف مشّوق،تاركا المتلقي متلهفا لسماع تفاصيل ذلك العدد،كما في قولهم: (ليس في الأرض عود أكرم من ثلاثة أعواد: عصا موسى، وخشب منبر الخليفة، وخوان الطعام)(٧٦)وكما في قول آخر : (أفضل

البقاع وخيرها ثلاثة. قيل: وما هي؟ قال:دكان الرّواس، ودرجة الخباز، ومطبخ الجواد . وأفضل الخشب وخيره ثلاثة: سفينة نوح، وعصا موسى، ومائدة يؤكل عليها)(٧٧).

الألفاظ ذات الأصول غير العربية:

يشيع في ادب الطفيليين استعمال الألفاظ ذات الأصول غير العربية، وبالأخص ألفاظ الطعام و أسماء الأكلات والأشربة وأواني الطعام،كالباذنجان والسكباج وهو مرق يعمل من اللحم والخل كما في قول احد الطفيليين:(أطيب ما يكون الباذنجان في السكباج والحصرمية والمضيرة والكشكية، وأطيب ما يكون لحم الحمل: في العدسية والمضيرة والحصرمية والكشكية)(٧٨).

وكالفالوذج وهو نوع من الحلواء ،و الخوان وهو ما يوضع عليه الطعام، كما نجد في هذا النص(_أتى رقبة بن مصقلة العبدي مسعر بن كدام، فاستلقى على ظهره، فقال: مالك يا أبا عبد الله؟ قال: صريع الفالوذج، كنا في دار رجل قضى بين الناس في الجماعة وحكم بينهم في الفرقة، دعانا الوليد بن رحب بن الحارث بن أبي موسى الأشعري إلى وليمة، فأتانا بخوان كجوبة من الأرض، ثم أتانا بخبز رقاق كآذان الفيلة، ثم أتانا بجرجير كآذان المعز، ثم أتانا بثريده ملساء، ثم أتانا بساكنة الماء كأن ظهرها ظهر طير قيراطي، ثم أتينا بفالوذج يقرأ نقش الدرهم من تحته؛فوضع على رأس حب، فنحن على لذة من هذا وعلى يقين من ذاك. فقال له مسعر - وكان يكنى أبا سلمة -: يا أبا عبد الله! أراك طفيليا؟ فقال: يابا - وكانت كلمتهم – كلهم طفيليون، ولكنهم يتكاتمون)(٧٩).

وكاللوزينج وهو نوع من الحلواء، و الجام وهو الإناء العميق،والكعك كما في قول احد الشعراء الطفيليين ينصح احدهم:

وعليك بالفالوذجا ت فإنها عين القصيد
هذا إذا حررتهم ودعوتهم هل من مزيد
والعرس لا يخلو من ال لوزينج الرطب العتيد
فإذا أتيت به محو ت محاسن الجام الجديد

قال: ثم أغمي عليه ساعة عند ذكر اللوزينج، فلما أفاق، رفع رأسه وقال:

وتنقلن على الموا ئد فعل شيطان مريد
وإذا انتقلت عبثت بال كعك المجفف والقديد
يا رب أنت رزقتني هذا على رغم الحسود(٨٠)

هذه أهم الخصائص التي اتسم بها ادب الطفيليين،وهي خصائص طبعته بالطابع الشعبي ،فلا تكلف ولا تعسف ،ولا تقعر ولا غموض، لأنه ببساطة كان أدبا شعبيا يعبر بلغة وظيفية عن رغبات حقيقية كامنة

في نفوس هؤلاء الطفيليين،لم يستعملوا اللف أو الدوران أو المخاتلة ،وإنما عبروا بصريح القول عما دار في خلدهم، فجاء أدبهم صورة صادقة عنهم.

الهوامش:

(١) ينظر :إصلاح المنطق: ٣٢٢،وثمار القلوب في المضاف والمنسوب: ١٠٨١٠٩،والعقد الفريد: ٢٢٧/٧، ونهاية الأرب في فنون الأدب : ٢٩٨/٣ ، والتطفيل وحكايات الطفيليين: ٤٦

(٢) ينظر :معجم الأدباء :٢١١٩/٥،غير أن الكتاب لم يصلنا٠

(٣) ينظر: م ٠ن :١٧٠٨/٤ ، غير أن الكتاب لم يصلنا ايضاً٠

(٤) طبع الكتاب بتحقيق كاظم المظفر،وطبع أيضا بتحقيق بسام عبد الوهاب الجابي وقد اعتمدنا هذه الطبعة الاخيرة٠

(٥) ينظر:العقد الفريد : ٧/ ٢٢٧ ٢٣٩ ٠

(٦) ينظر:نثر الدر :١٧١/٢ ١٨٨ .

(٧) ينظر: زهر الآداب ٤/ ٩٧٩ ٩٨١

(٨) ينظر: التذكرة الحمدونية :الباب السادس و الاربعون٠

(٩) ينظر:الأذكياء :١٦١ ١٦٥ .

(١٠) ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب :٢٩٨/٣ ٣٠٩ ٠

(١١)ينظر : فص الخواتم فيم قيل في الولائم فالكتاب في جُل فصوله يتحدث عن هذا الأمر.

(١٢) البخلاء: ٧٨ ،وينظر:التطفيل وحكايات الطفيليين:٤٧حيث ذكر أن(الطفيلي من كلام العامة)

(١٣)المزهر في علوم اللغة وأنواعها : ٣٠٧/١ ٠

(١٤) ينظر :إصلاح المنطق: ٣٢٢ ،والبخلاء: ٢١٥ ،و انساب الأشراف : ٢٢٥/١٣ ،و التطفيل وحكايات الطفيليين : ٤٦ ،و الصحاح :١٧٥٢/٤ ،وتاج العروس : ٣٧٤/١٦ ٣٧٥ ،ولسان العرب :٢١٨٣/٤ ٠

(١٥) ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب :٢٩٨/٣ ٠

(١٦) ينظر : م٠ن :٢٩٨/٣ ، وتاج العروس : ١٦/ ٣٧٥ ،ولسان العرب :٢٦٨٣/٤ ٠

(١٧) ينظر : م٠ن :٢٩٨/٣ ٠

(١٨) ينظر:التطفيل وحكايات الطفيليين : ٨٣ ٩٩ وينظر العقد الفريد : ٧/ ٢٣٢ ٢٣٥ ، ونهاية الأرب في فنون الأدب : ٣/ ٣٠٣ ٣٠٥ ٠

(١٩)ينظر :نوادر البخلاء نصوص و دراسة :٨٣ .

(٢٠) التطفيل وحكايات الطفيليين :١٣٦ ،وينظر:العقد الفريد:٢٣٦/٧،ونهاية الأرب في فنون الأدب:٣٠١/٣.

(٢١) التطفيل وحكايات الطفيليين : ١٣٥، وينظر:نهاية الأرب في فنون الأدب : ٣٠١/٣ .

(٢٢) م.ن:١٣٦ .

(٢٣) م.ن: ١٣٨ .

(٢٤) نهاية الأرب في فنون الأدب :٣٠١/٣ .

(٢٥) ينظر :التطفيل وحكايات الطفيليين :١٣٤١٣٨ .

(٢٦) ينظر :م.ن:٩٥ .

(٢٧) ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب : ٣/ ٣٠٠ ٠

(٢٨) التطفيل وحكايات الطفيليين :١٣٥.

(٢٩) ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب :٢٩٩/٣.

(٣٠) التطفيل وحكايات الطفيليين:١٣٤ ١٣٥ .

(٣١) م.ن:٨٣ .

(٣٢) الأذكياء:١٦٢ .

(٣٣) نهاية الأرب في فنون الأدب : ٣٠٧/٣ .

(٣٤) إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس:٣١٤ .

(٣٥) ينظر: عناصر مشتركة في ادب الطفيليين والمكدين و البخلاء: مقدمة البحث.

(٣٦) نثر الدر: ٢/ ١٨٥ .

(٣٧) نهاية الأرب في فنون الأدب : ٣٠٠/٣، ينظر :التطفيل وحكايات الطفيليين :١٢٦١٢٧ ،و الأذكياء:١٦٢،والفصوص:٢٢٤٢٢٩/٢ .

(٣٨) الأذكياء:١٦٤.

(٣٩) نثر الدر: ٢/ ١٨٤١٨٥ ، وينظر:التطفيل وحكايات الطفيليين :١٠٦١٠٧.

(٤٠) العقد الفريد: ٢٢٩٢٣٠/٧ ،وينظر: الأذكياء:١٦٢.

(٤١) نثر الدر: ١٧٥/٢ ، وينظر: الأذكياء:١٦١.

(٤٢) العقد الفريد: ٢٣١٢٣٢/٧ .

(٤٣) م.ن:٢٣٦/٧، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب:٣٠٢/٣.

(٤٤) نثر الدر:١٧٤/٢ .

(٤٥) م.ن:١٧٥/٢،، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب:٣٠٢/٣.

(٤٦) العقد الفريد: ٢٣٦/٧، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب:٣٠١/٣.

(٤٧) م.ن:٢٢٨/٧، ، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب:٣٠١/٣.

(٤٨) م.ن:٢٣٥/٧، وينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب:٣٠٢/٣.

(٤٩) م.ن:٢٣١/٧.

(٥٠) نثر الدر:١٧٤/٢ .

(٥١) م.ن:١٧٢/٢.

(٥٢) الأذكياء:١٦٤.

(٥٣) العقد الفريد: ٢٣٧/٧.

(٥٤) م.ن:٢٣٨/٧.

(٥٥) نثر الدر:١٧٩/٢،والسنبوسك:فطائر تُعمل من رقاق العجين وتُحشى باللحم والجوز.

(٥٦) م.ن:١٨٤/٢.

(٥٧) م.ن: ١٧٢/٢.

(٥٨) العقد الفريد: ٢٢٧/٧، وينظر: الأذكياء:١٦٣، نهاية الأرب في فنون الأدب:٢٩٨/٣.

(٥٩) الأذكياء:١٦٥.

(٦٠) نثر الدر:١٨٣/٢، وينظر: الأذكياء:١٦٥ ، ، نهاية الأرب في فنون الأدب:٢٩٨/٣.

(٦١) م.ن:١٨٣/٢، ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب :٢٩٩/٣.

(٦٢) م.ن:١٨٣١٨٤/٢،و ينظر : نهاية الأرب في فنون الأدب :٢٩٩/٣.

(٦٣) الأذكياء:١٦٥.

(٦٤) نثر الدر:١٧٢/٢ .

(٦٥) الأذكياء:١٦٥.

(٦٦) التطفيل وحكايات الطفيليين :١٠٩.

(٦٧) م.ن: ١٠٨١٠٩.

(٦٨) نهاية الأرب في فنون الأدب:٢٩٨/٣.

(٦٩) نثر الدر:١٧٢/٢ .

(٧٠) م.ن: ١٧٦/٢.

(٧١) م.ن:٢/ ١٨٦.

(٧٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها:٩٨/١.

(٧٣) نثر الدر:١٧١/٢ .

(٧٤) التطفيل وحكايات الطفيليين :١١١.

(٧٥) م.ن:١٣١.

(٧٦) العقد الفريد: ٢٢٧/٧.

(٧٧) نثر الدر:١٧٤/٢،والرّواس بائع الرؤوس.

(٧٨) التطفيل وحكايات الطفيليين :١٥٣،وينظر في أصول هذه المفردات:الألفاظ الفارسية المعرّبة :١٥، ٩٢،وألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ:٤٤٥، ٤٤٩.

(٧٩) م.ن:٨٥٨٦ ، وينظر في أصول هذه المفردات:الألفاظ الفارسية المعرّبة:٥٨، ١٢١،وألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ:٤٤٧، ٤٦٤.

(٨٠) م.ن: ١٣٠، وينظر في أصول هذه المفردات:الألفاظ الفارسية المعرّبة :٤٩، ١٣٦، ١٤٢،وألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ:٤٤٦، ٤٦٢.

ملخص البحث

تحاول هذه الدراسة أن تكشف شيئا من الغموض الذي يلف الطفيليين وهم من أشهر الشخصيات الهامشية التي ملأت كتب الأدب التراثية بالنوادر و الحكايات التي طالما أدخلت البهجة و السرور والفرح على النفوس بمواقفها المرحة ؛ فعمدت الدراسة إلى القيام بالتأصيل لأدب هذه الفئة وذلك بالبحث عن أهم المصادر التراثية التي صرفت جهدها لجمع إخبار الطفيليين ونوادرهم ووصاياهم وأدبهم؛ ومن ثم عمدت الدراسة إلى محاولة الاقتراب من الأسباب والدوافع التي تقف وراء نشأت التطفيل، ثم ذهبت إلى استقراء أهم الخصائص التي اتصفت بها شخصية الطفيلي، وانتهت إلى رصد ابرز سمات ادب الطفيليين.

Abstract

Intruders' Literature - Origin and General Characteristics-

THIS study tries to uncover some of the ambiguty that enfolds one of the marginal well- known figures that has filled the books of Literature with their situations, stories and anecdotes which often add joy, ecstasy and happiness to the souls of people. This study aims at studying the origin of this category through searching the important traditional references that have exerted some effort on collecting the st0rier and news of the intruders and their anecdotes, bequests, and literature. This study attempts to approach the intruding reasons and motive behind the origination of intruding . It also infers the crucial characteristics that are adhered to the personality of the intruder. It has figured out the most prominent features of the intruders literature in its conclusion.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

الأذكياء ، ابن الجوزي، جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن، (٥٩٧ه) ، تح: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

إصلاح المنطق، ابن السكيت، أبو يوسف يعقوب بن اسحق، (٢٢٤ه)، تح: احمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٩م، ط٤.

إعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، الاتليدي، محمد دياب، (١١٠٠ه)، دار صادر، بيروت لبنان، ١٩٩٠م.

ألفاظ الحضارة العباسية في مؤلفات الجاحظ، د.طيبة صالح الشذر، دار قباء ، القاهرة، ١٩٩٨م.

الألفاظ الفارسية المعرّبة، ادّي شير، المطبعة الكاثوليكية لليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

انساب الأشراف، البلاذري، احمد بن محمد بن يحيى، (٢٧٩ه)، تح: سهيل زكّار، د.رياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٦م.

البخلاء، الجاحظ، عمرو بن بحر، (٢٢٥ه)، دار المعارف، مصر، ١٩٩٠م، ط٧.

تاج العروس، الزبيدي، محمد مرتضى، (١٢٠٥ه)، تح محمد محمود الطناحي. مطبعة حكومة الكويت، ١٩٧٦م.

التذكرة الحمدونية، بن حمدون، محمد بن الحسن البغدادي، (٥٦٢ه)، تح: د.إحسان عباس، وبكر عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦م.

التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم، الخطيب البغدادي، أبو بكر احمد بن علي بن ثابت، (٤٦٣ه)، تح: بسام عبد الوهاب الجابي، دار ابن حزم، ١٩٩٩م.

ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل ، (٤٢٩ه)، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم/دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م.

زهر الآداب وثمر الألباب، الحصري القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، (٤٥٣ه)، تح: د.زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م، ط٤.

الصحاح، الجوهري، إسماعيل بن حماد، (٣٩٣ه)، تح: احمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٠م، ط٤.

العقد الفريد، ابن عبد ربه، احمد بن محمد(٣٢٨ه)، تح: د.عبد الحميد الترحيبي ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

عناصر مشتركة في ادب الطفيليين والمكدين والبخلاء، د.خالد عزايزة، منشورات جامعة ، عدد:٧

فص الخواتم فيما قيل في الولائم، ابن طولون، محمد بن علي بن احمد، (٩٥٣ه)، تح:نزار أباظة، دمشق، ١٩٨٣م.

الفصوص، البغدادي، أبو العلاء صاعد بن الحسن الربعي، (٤١٠ه)، تح:د.عبد الوهاب التازي سعود، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، ١٩٩٣م.

لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، (٧١١ه)، دار المعارف، القاهرة مصر.

المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، (٩١١ه)، تح: جاد المولى وآخرين، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٣.

معجم الأدباء، ياقوت الحموي، أبو عبد الله شهاب الدين، (٦٢٦ه)، تح:إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣م.

معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د.احمد مطلوب، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٣م.

نثر الدر في المحاضرات، الآبي، الوزير أبو سعد منصور بن الحسين، (٤٢١ه)تح:خالد عبد الغني محفوظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.

نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، (٧٣٣ه) ، تح د.حسن نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤م.

نوادر البخلاء نصوص ودراسة د.محمد عبد الرحمن الربيع، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م